لَيْتَ المدائحَ تَسْتَوْفى مَنَاقِبَهُ فما كُلَيْبٌ وأَهلُ الأَعصر الأُوَل
خُذْ ما تَرَاهُ ودَعْ شيئاً سمعتَ بهِ فى طلعة الشمس ما يُغنيك عن زُحل
إنَّ الهمام الذى فخرُ الأَنام به خيرُ السُّيوف بَكفَّى خيرة الدُّوَلِ
تُمْسِى الأَمَانىُّ صَرْعَى دُونَ مَبْلَغه فَمَا يَقُولُ لِشَىءٍ : لَيْتَ ذلك لى

ذلك لأن التواريخ العربية تضرب المثل فى العزّ ، فتقول : « أعزّ من كليب » ولكن المتنبى لم يرض لمليكه هذا بل رفعه فوقه ؛ وجعله كالشمس فى نورها وإشراقها ، وأين نور الشمس إذا قورن بضوء زحل ذلك الكوكب البعيد ؟ ثم وضع سيف الدولة فى جنان النعيم تتسابق الأمانى صرعى فى سبيل رضاه فما يجدُ ما يتمنى ولا يأسى لفقد شىء لأنه فوق الرغبة والأمنية، ومثله لا يسعى إلى شىء ، وإنما تسعى إليه الدنيا ومناقبها . والمتنبى هنا بلغ مرتبة فى المديح لا ينافسه فيها شاعر ، إذ ركب متن الخيال فاصطاد أبعد الصور وامتطى أجمل التعابير ، يدفعه إلى المديح حبّ مليكه وإعجابه بعروبته وشجاعته ، ووقوفه للأعداء وقفة الأسد الهصور والسور المنيع . وشاعر القرن الرابع كالنابغة يفضل مليكه على الملوك جميعاً ، فهو شمس وهم الكواكب ، وهو بحر والملوك جداول :

أَرى كُلَّ ذِى ملْك إليكَ مَصِيرُهُ كأَنَّكَ بَحْرٌ والمُلوك جَدَاوِلُ
إذا مَطَرَتْ مِنْهم ومنكَ سَحَائِبٌ فوابِلهم طَل وطَلُّك وابلُ

فهو المطر المنهمر فى سخائه وجوده وكرمه وهم كالطل الشحيح ، وأنه الفتى المغوار والمليك الحلاحل تطيعه الأرواح وتلتف حوله القبائل ، وتقبل بساطه الملوك ؛ والأعداء فى الدنيا عبيده والأموال كلها غنائمه ، وقد ظلمه من سماه سيفاً فما كل سيف قاطع ، ومكارمه كالسيوف تقطع الشدائد جميعاً . ويتجاوز المتنبى الجود إلى الشجاعة فيرسم سيف الدولة فى صورة بارعة لا نرى فوقها فى مديح